حول موقف النخبة السياسية بالشمال من احداث مكناس 1937

أحمد بـوجداد

ثلاثة عوامل: علمية، موضوعية، سياسية، كانت سببا في انجاز هذا العمل.

ـ فالعامل او الدافع العلمي/ المنهجي يعود الى كون الحركة الوطنية بالمنطقة الخليفية سابقا، بما توافر لها من شروط محلية ودولية، سمح لنخبتها السياسية بلعب دور بارز في الحياة السياسية لمغرب عهد الحماية، لذا فهي تشكل جزءا من النخبة السياسية المغربية، ساهمت في بناء «الفكر» السياسي والثقافة بالمغرب. والملاحظ ان بعض اثارها مازالت فاعلة لحد الان، لهذا فان الاحاطة بفكرها وسلوكها عملية ضرورية لاعادة التوازن للتاريخ، وما اختيار احداث بوفكران إلا لكونها احدى الحالات، ان لم تكن افضلها او ابرزها، التي تمكننا، في مكان وزمان محددين، من رصد بعض مفاهيمها (الوطنية، النضال الوطني مثلا) وتصوراتها (تصورها للاستعمار وطرق مقاومته) واواليات نشاطها، واستراتجيتها (كيف أعدت مواقفها ونسقتها على واجهات مختلفة، بتكييفها مع ثقافتها وامكانياتها واهدافها المرحلية).

ـ أما الدافع الموضوعي فيتجلى في كون هذه النخبة السياسية «الشمالية» لا وجود ولا أثر لها في الدراسات العلمية الوطنية والاجنبية التي تعرضت لهذا الموضوع في المغرب المستقل، بحيث ان التقسيم الاستعماري انعكس بقوة على الأبحاث العلمية والاكاديمية، وهكذا لم تنل هذه الحركة ما تستحقه.

ـ وفيما يخص الدافع السياسي/ التاريخي هو ان كل الجهود الاستعمارية لتمزيق المغرب ماديا ومعنويا، لها نفس المضمون وان اختلف شكلها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية سنتمكن من كشف الستار عن بعض حالات غصب المياه التي تواجه فيها المغاربة مع الاستعمار الاسباني، والتي تعتبر شبيهة بأحداث ماء بوفكران، وان لم تصل الى مستواها.

اولا: المعطيات العامة وسياقها التاريخي

يتشكل هذا المحور من أربعة عناصر: الوضع الدولي والوضع المحلي والفاعلون والوسائل، دون أن يعني أنها منفصلة عن بعضها البعض.

من اللازم ربط احداث ماء بوفكران بإطارها التاريخي، المحلي والدولي، فهي تزامنت مع أحداث كان لها وقعها الكبير في تلك الفترة مثل قرار تقسيم فلسطين (1) وتنظيم مؤتمر شمال افريقيا للطلبة المسلمين (2) والمطالبة الاولى بالاستقلال والوحدة (36/12/12) وتقديم مطالب الامة والحرب الاهلية الاسبانية (3) وقد كان لهذا الحدث الاخير من القوة ما أدخل المنطقة الخليفية في مرحلة جديدة، تمثلت في سلوك السلطات الاستعمارية الاسبانية الانقلابية سياسة التساهل والتفاهم مع الحركة الوطنية قصد حماية قاعدة انطلاقهم ودعم مجهودهم الحربي، ومما ترتب عنها تأسيس احزاب وجمعيات ودعم اصدار الصحف والجرائد وارسال بعثات علمية الى الشرق العربي وتنظيم زيارات استطلاعية ودينية للمغاربة. (4)

اما الفاعلون السياسيون فنجد احزاب سياسية نشأت حديثا في مقدمتها حزب الاصلاح الوطني بزعامة عبد الخالق الطريس (5) والذي اصدر جريدة «الحياة» وحزب الوحدة المغربية بزعامة الشيخ المكي الناصري ولسان حاله جريدة «الوحدة المغربية»التي تصدر في نسختين باللغتين العربية والاسبانية.

كما سوف يؤسس لاحقا حزب المغرب الحر وحزب الاصلاح الديني وحزب الاحرار وحزب الرجال الاحرار الا انهم اندثروا إضافة الى بعض الجمعيات.

الوسائل والامكانيات المتوفرة تتمثل في حرية التحرك وحرية الاتصالات مما سمح لهذه الحركة الوطنية بربط علاقات خارجية عربية بالخصوص (6) مع بعض الجمعيات الدولية ورجالات السياسة والفكر والثقافة إضافة الى التنظيمات الحزبية والجمعوية والجرائد الناطقة باسمهم مباشرة او بطريقة غير مباشرة مثل جريدة

«الريف» (7). كل هذه الامكانيات استعملتها الحركة الوطنية ووظفتها حسب الظروف على الشكل التالي: تعبئة الجماهير في المساجد وتنظيم حفلات خطابية داخل هذه الاخيرة او بعدها، والقيام بالتظاهر السلمي، وارسال برقيات الاحتجاج والاضراب بكل انواعه، واخيرا السفر الى الخارج لعرض الامر امام الرأي العام العالمي والاتصال بالمسؤولين هناك.

فالنافذة التي ننظر منها الى هذه الاحداث الا وهي الصحافة، كمصدر اساسي تعتبر معيارا يعكس اهمية كل حزب ومدى تأثيره في قرّائه والمهتمين والمتتبعين، «فالحرية» نجدها في المقدمة ب 2000 نسخة «والريف» بين الف والف ومائتي نسخة «والوحدة المغربية» ب 500 نسخة (8).

وفي هذا الصدد لا يجب ان نهمل الوضع الداخلي العام بالمنطقة الشمالية فهناك قلة المتمدرسين (10٪ بمدينة تطوان مثلا) والمتعلمين، وانتشار الامية والفقر والامراض المعدية، وتمركز الوطنية في المدن الرئيسية، وتأخر وسائل الطبع والنشر والتوزيع، اضافة الى المكونات العرقية الطاغية والمتنافرة بهذه المنطقة والتي أذكى الاسبان الصراع بينها وهي العنصر الجبلي والريفي والمديني، التطواني بالخصوص، والذي يظهر أنها لم تذب نهائيا.

ثانيا: تعامل الحركة الوطنية مع أحداث ماء بوفكران

يمكن رصد موقف النخبة السياسية بالشمال من احداث بوفكران انطلاقا من ثلاثة مستويات: اخباري - اعلامي وعملي وسياسي.

1 - بالنسبة للمستوي الاول نجد ان هناك موقفين بارزين: موقف حزب الاصلاح الوطني الذي تابع سياسيا واعلاميا انتفاضة الشعب المكناسي فنشر عددا خاصا (9) من جريدة الحياة للاخبار عن هذه الاحداث (10) ناقلة كل التفاصيل حسب المعلومات المتجمعة لديها في تسلسلها، واستمرت على نفس الوثيرة في الاعداد اللاحقة، مشكلة بذلك مادتها الاساسية. بحيث جعلت مسؤولية الاحداث الدامية تعود الى اغتصاب الاستعمار الفرنسي لماء بوفكران وانه هو المسؤول الاول والاخير، كما ردت على ماورد في الصحافة الفرنسية التي اتهمت فيها «الوطنيين المغاربة والشيوعيين وشيوعيي الجزائر (11)» بانهم وراء هذه الاحداث، وقد فسرت الحرية لقرائها بكون المظاهرة كانت سلمية، والدليل حضور الاطفال والنساء، كما

انها اكتست كل المظاهر الحضارية من اللجوء الى كل الوسائل القانونية المشروعة، وان المظاهرة لم تأت إلا بعد أخذ ورد طويلين وتماطل للادارة الاستعمارية تخللته الاحتجاجات الكتابية والعرائض والاتصالات الشخصية، الى ان قام المستعمر باستفزاز المكناسيين، كما ان السلم والاستكانة وتوقيف الهياج يعود الي «رجال الوطنية المسموعة»، وتحدثت في نفس الوقت عن مأساة فلسطين، معبئة الجماهير لدعم هذه القضية، وعن مآل مؤتمر الطلبة المسلمين لشمال افريقيا، فالحركة الوطنية اعتبرت كل هذه القضايا مجتمعة قضية واحدة، تندرج في نفس الواجهة النضالية.

أما جريدة الوحدة المغربية فأشارت في احد اعدادها بعد مرور الاحداث وفي اطار عام اشارة طفيفة الى الاحداث اوردتها بعد ذكرها لاحداث مراكش التي كانت دونها اهمية (12) الا انها ركزت على بعث تحية للمؤتمر السابع للطلبة المسلمين لشمال افريقيا ودعم ومساعدة فلسطين ومناهضة الصهيونية، كما طالبت بتوحيد جبهة العمل الوطني.

2 ـ على المستوى العملي او الميداني فقد عقد حزب الاصلاح اجتماعا استثنائيا رغم ان اغلب اعضائه لم يكونوا موجودين آنذاك، وقرر اتخاذ عدة اجراءات فورية منها اقامة صلاة الغائب على شهداء الاحداث بعد صلاة الجمعة وابلاغ ذلك الى كل فروعه بالمنطقة، وقد تم ذلك بالفعل، بحيث قام الشبان والسكان عقب ذلك بالتجمهر وقراءة الاحتجاجات المرفوعة لسلطان المغرب والمقيم العام الفرنسي، وتبليغ كل احرار العالم عبر الصحافة والاتصالات الشخصية، وارسال جرائدها الممنوعة من دخول المنطقة السلطانية عبر البريد الانجليزي لاطلاع الشعب المغربي على تفاصيل الاحداث، ونظرا لقوة وعنف رد فعل المنطقة الشمالية على هذه الاحداث تمت اتصالات فرنسية اسبانية ضغطت فيها فرنسا على اسبانيا قصد التدخل لدى الطريس لايقاف حملته على فرنسا خاصة عندما أدانهما بمناسبة النسخة بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش في اكبر تظاهرة دينية (حضور 15.000 شخص). وفعلا استدعت الادارة الاسبانية الزعيم الطريس واخبرته بالامر الا ان الموقف الحقيقي لاسبانيا كان غير المعلن عنه رسميا. وللتذكير فان فرنسا حكمت على الطريس بالاعدام غيابيا في هذا الخصوص مرتين، والمرة الثالثة فغير مؤكدة.

اما حزب الوحدة المغربية فانطلاقا من موقفه النظري، لم يقم بأي عمل يذكر

بحيث اعتبر التجمع الذي نظمه حـزب الاصلاح الوطني بعد صلاة الجمعة قد شارك فـيـه انصاره، وبالـتالي يـكون الحزب قـد عـبـر عن تضـامنه مع المكناسـيين بطريقـة ضمنية.(13).

3 ـ المواقف السياسية تعكس وضعية كل حزب في اطار ميزان القوى السائد، الا ان التـعـامل مع هـذه الاحـداث يبـرز من بين مـايبـرزه انه شكـل مناسـبـة لحـزب الاصـلاح الوطني بالخـصـوص، لابـراز وتأكيـد وجـوده خـاصة وانه حـديث النشـأة، وبالتــالي امكانيـة ازدياد ايقـاع خطابه ومطـالبـه في مـواجـهـة الادارة الاسـبـانية الاستعمارية، مع بداية تراجع وعودها وتقلص حماسها.

فهـذه الاحداث دفعت حـزب الاصلاح لابراز مـوقفه من التـأكيـد على الوحدة المغـربية الطبـيعـية، من جـهة وتوضـيح مفـهومـه للوطنية بحـيث اعـتـبرها «وطـنـية اسلامـية روحـية ملية منافيـة للوطنية الـتي تقوم على الاقليم او الجنس» وهذا يظـهـر تأثير القـومية العربيـة بأدبياتها ورجالاتهـا على نخبة الحزب. كـما اعتبـر ان المغاربة يواجـهون نفس الاشكاليـة، فهنـاك وحدة القـضيـة الا ان فرنسـا هي العدو رقم واحـد للمغرب وليس اسـبانيا، (14) وهذا تأكيـد على خصوصـية هذه النخبـة في مقاومتـها للاسـتعـمـار، وفي تصـورها للاسـتعـمار بحـيث قـالت: «لا نأخـذ ولا نتبع أحـد دون مطالبنا في مطالب الشعب» (15).

وعلى مسـتوى المناورة السـياسيـة نجد هذا الحزب يذكـر السلطات الاسبـانية بالوعود التي قـدموها للحـركة الوطنية بالشـمال، والتي اسـتبـدلت الحقـوق السياسـية بالحقوق الثقافية،كما نددوا بالخروقات التي يرتكبونها، وزادوا على ذلك تهديدا، بكون الاسـبان هل يقـتنعون بعـد هذه الاحـداث بمطالبهم وينفـذونهـا، والا ستكون العـاقبـة سـيئـة، فمـا حـوادث مكناس الا البـداية، فـهي اول بقـعـة (16)، كـمـا لم يفت حـزب الاصلاح هذه الفـرصـة للهجوم على «خـصمه» السـياسي حزب الوحدة المغـربية، اذ طالب بمقاومـة كل اشكال التفرقة ومنـها التفرقـة بين الجماهير وقـيادتها، مشـيرا الى المعارضـة المصطنعة او الوطـنية المزيفة، لانـه سبق للشيـخ المكي الناصـري ان انتـقد احدى توجيهات هذه النخبة السياسية التي نعتها بالشوفنية. (17)

ثالثا: حالات غصب الماء بالمنطقة الخليفية:

اقحـمنا هذا المحور للتـأكيد على نـقطتين، اولا ان سلوك الاستعـمار هو نفسه

وان هناك تشابها في الوضعيات، ثانيا ان هذه الاحداث ناضلت من اجلها النخبة السياسية بالشمال بطريقتها الخاصة.

فأهم النزاعات حول الماء نجد«ماء كيتان» (18) الذي يسقي الحقول الزراعية التي تزود تطوان بالمواد الفلاحية، فقد قامت الادارة الاسبانية ممثلة في بلدية المدينة بتحويله لفائدتها وقد تطرقت الصحافة الوطنية للموضوع معلنة احتجاج المالكين والمزارعين، وذكرتهم باغتصاباتهم السابقة (19) وخاصة ماء «غراسي المر» القريبة من تطوان (20) وماء «دار الزكيك» (21)،وقد شكل ماء شفشاون احدى اهم مشاكل الماء بالمنطقة، بحيث كانت الادارة الاسبانية تنوي التحكم فيه، ومنح استغلاله لاحدى الشركات الكهربائية الاسبانية، إلا أن السكان انقسموا في شأنه، فهناك تيار يريد استعمال القوة لاسترجاع الماء في حالة اغتصابه، وتيار يفضل اللجوء الى القانون للدفاع عن ماء المدينة (22) وقد شكل هذا الموضوع محور اجتماع هيئة العمل الوطني في شمال المغرب في 15 ماي 1935(23) والذي يشيرالى تسوية مشكل هذا الماء بفضل تدخل عبد الخالق الطريس لدى النائب العام الاسباني، الا انه لوحظ اعادة طرح هذا المشكل مرة اخرى لدى هذه النخبة السياسية في محاضر هيئتها (24) بحيث نعثر على انه تم تقرير بعث التهامي الوزاني الى شفشاون قصد استطلاع الامر.

خلاصة مؤقتة :

اول ما يتبادر للذهن اهمية الماء بالنسبة للشعب المغربي الذي قد تتجاوز احيانا الحدود المألوفة وارتباط المطالبة به وبمثله بقضايا وطنية عامة.

فاحداث بوفكران تؤرخ لمرحلة جديدة من نضال الشعب المغربي ضد الاستعمار، وان عزل المغرب الى ثلاث مناطق لم يكن حاجزا، بل لعب دورا معاكسا للرغبة الاستعمارية كما سمحت هذه الاحداث لحزب الاصلاح بتجريب جهازه الحزبي الحديث، وفرض نفسه كمخاطب وحيد، وتحيين الفرصة لتصفية حساباته والحصول على مزيد من المكتسبات واعطاء اهمية كبيرة للرأي العام العربي والاسباني، والتفكير دائما واوليا في حل كل المشاكل والنزاعات بالتفاوض والتفاهم وليس بالعنف، مع اعتبار فرنسا عدوا رئيسيا للمغاربة.

كما ان الاحداث الداخلية لم تثن هذه النخبـة عن الاحداث القومية فهناك ربط بين الوطني والقـومي في جدلية ممتـازة انفرد بهـا، كما ان مـوقف حزب الوحـدة كان سيـاسيا وتناوريا اكثـر منه موقفا حـقيقيـا من الاحداث فقد قـدم خدمات مهـمة لم يحن الوقت للكشف عنها كلها.

الهــوامـــش :

1) انظر بلاغ حــزب الاصــلاح الوطني حـول تقـسـيم فلسطين في: الحــرية عـدد 18-1937 ورسالة التأييد الذي بعثـها الى أمين الحسيني بتاريخ 1937/8/8 وجعله ليوم 27 رجب من كل سنة (37/ 10/24) يوما خاصا احتجاجيا بقضية فلسطين.

2) كان قـد قرر انعقـاده بفاس من 7 الى 12 شتمـبر 1936 الا ان الادارةالفرنسـية منعتـه، وقد سبق أن عقد المؤتمرات السابقة مرتين بتـونس ومرتين بالجزائر ومرة واحدة بباريس ومرة بتطوان 27/ 21 اكتوبر 1936 انظر: ابن عزوز حكيم: وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب ـ ج 1 ـ ط2 ـ تطوان 1981.

3) في 18 يوليـوز 1936 قـام العـسكريـون الاسبـان بالمنطقـة الخليـفيـة بانـقـلاب ضـد النظام الجمـهـوري الاسباني، جاعلين من مـدينة تطوان قاعدة انطلاق تمردهم الذي تزعمـه الجنرال فرانكو، وقد استمرت هذه الحرب 3 سنوات متتالية.

4) لا يجب ان ننكر بان اصدار ظهيـر خليفي بتنظيم انتخابات بلدية حرة بجـميع المدن بتاريخ 6 ماي 1931 وتنظيم الشـغل واوقات العمل وحـرية الاجتـماع وتأسيـس الجمعـيات تمت في عـهد حكم الجمـهوريين الاسبـان، وكـاستـجابة جـزئية لمطالب الحـركة المقـدمة في 1 ماي 1931 و9 يوليوز 1933 ونقصد بالنقطة الاخيرة اعلاه، تنظيم رحلات الحج.

5) تأسس هذا الحزب في 18 دجنبر 1936.

6) نجد ان بعثات الطلاب الـى الشرق قوت علاقة النخبة السـياسية الثقافيـة بالشرق العربي، كما ان اتصالات اخري موازية لعبت دورا كبيرا، بحيث نجد ان المؤتمر الاسلامي العام المنعقد بالقدس من 7 الى 17 دجنبر 1931 يوجـه دعوة الحـضـور الى الحـاج عبـد السـلام بنونة والذي أناب عنه اخـاه الحـاج محـمد (نفس المصـدر)، كمـا كـانت هناك اتصالات وزيارات مع الامـيـر شكيب ارسلان منهـا زيارته لتطوان، وتأسيس جـمعية للدفـاع عن القضية المغـربية بالقاهرة، وتأسيس الجـمعية الاسـلامية الاسبانية بمدريد يوم 1 يونيه 1932، اضافة الى علاقتهم بالعصبة الدولية المناهضة للاستعمار ببرلين، كما كانوا اعضاء في الاكاديمية الاسبانية.

7) اسس الشـيخ التـهـامي الوزاني هذه الجـريدة يوم 27 غشت 1936 وقـد منعـتـهـا السلطات الفرنسـية من دخول المنطقة السلطانيـة بتاريخ 11 شتنبر1936، وهي تعتـبر ناطق غيـر مباشـر لحزب الاصلاح.

8) أرقام تقـريبيـة حصلت عليـها من خـلال أحد الذين عـاصروا هذه الفـترة، كمـا لا يجب ان ننسى ان عدد السكان لم يتجاوز 700.000 نسمة في كل المنطقة أغلبهم يسكنون البادية.

9) تجدر الاشارة هنا الى مدى الصعوبة المادية والمعنوية في اصدار عدد استثنائي في تلك الفترة.

10) صدر هذا العدد «25â يوم الاحد 5 شتنبر 1937، اما جريدة الريف فتحدثت عن الاحداث بأهمية كبيرة وقد صدر في العدد 103 وفي الاعداد اللاحقة، فحسب جريدة الحرية فقد نظم حزب الاصلاح صلاة الغائب على شهداء ماء ابي فكران بعد صلاة الجمعة ووصفتها لاحقا.. انظر كل الاعداد الموالية لهذا العدد.

11) Presses Marocaines - 5 Septembre

فقد تحدثت هذه الجريدةعن كون الاحداث يكمن وراءها الوطنيون الاسبان او الالمان او الايطاليون وليس الشيوعيين الفرنسيين كما تقول الشائعات.

كما تحدثت الصحافة الاسبانية عن هذه الاحداث مكتفية بالوصف دون اتخاذ موقف.

انظرمقال منشور في:

Gaceta de Africa - 7-09-1937

"Los incidentes de Mequinez y los periodocos Francos"

وتقصد الجرائد: Decats; Le jour; Le temps

12) الوحدة المغربية عدد 36 ـ السنةالاولى ـ 10 شتنبر 1937

تحدثت عن هذا الموضوع في اطار مقال رئيسي تحت عنوان: «ياويل للمغلوب من الغالب والمطلوب من الطالب».

13) قد نشر هذا الخبر في الصفحة الاخيرة لجريدة الوحدة المغربية ومكتوب بخط صغير الحجم مقارنة مع ما هو مكتوب بجواره، انظر: الوحدة المغربية عدد 37-17 شتمبر 1937.

14) لانه كما يعلم الجميع، اسبانيا دخلت الى المغرب بناء على اتفاقية أبرمتها مع فرنسا، وانه اذ انتفت شرعية الوجود الفرنسي بالمغرب، فان اسبانيا سترحل حتما، وهذا ما سوف يشكل احدى النقاط الساخنة من الصراع بين فرنسا واسبانيا في السنوات القليلة التي سبقت الاستقلال.

انظر على سبيل المثال:

Jean Wolf: Verite sur le protectorat

franco - espagnol l'epopee d'Abdekhalek Torres 1994- eddif

15) نجد محمد بنونة يقول بان الدافع هو العزة القومية، الغريزة الفطرية الموروثة انظر الحرية عدد 27 - 20 شتنبر 1937.

16) نفس المصدر.

17) جريدة الوحدة المغربية نفس المصدر 1937.

18) جريدة الوحدة المغربية نفس العدد 1937.

19) تقع بالجنوب الشرقي لمدينة تطوان، وهي عيون فوارة تنبع من سفح جبل بوزيتون، وقد اعتبر ان هذا الماء ليس في ملك المخزن ولا مصلحة عمومية فيه، وحجة بلدية تطوان هو ان ماء اغبالو لم يعد كافيا لتزويد المدينة بالماء الشروب ـ انظر: الحياة 28 يونيه 1937.

20) ذكر الوطنيون الاسبان بكونهم سبق لهم ان اخذو ماء اغبالو وماء ابحيرو الذي كان لها تأثير سلبي على البساتين والمغروسات ـ الحياة عدد 15، 1937/06/28.

21) تقع بناحية طريطة بتطوان، بحيث اخذت الادارة الماء من اصحابه الشرعيين، واستغلت مدخوله ادارة المنافع، وبعد احتجاج السكان اعطوهم ما يكفيهم ولكن مؤخرا لم يجدوا ما يشربوه.

22) وقد شغل هذا المشكل هيئة العمل الوطني شمال المغرب، وتقرر في اجتماع 2 يونيه 1934 قيـام عبـد السلام بنونة والطريس وعـبد الله البـقالي بالاتصـال بالرهوني في هذا الموضوع الـذي شغل منصب وزير العدلية في الحكومة الخليفية.

23) ان ماء شفشـاون كما يقول الشيخ التهـامي الوزاني يرتبط كثيرا بنفسيـة سكانها وقد دخل ذاكرتهم واغانيـهم وامثالهم وقصصهم، فـهم يعتبرونه أجل قدرا من النيل واعظم فائدة مـن الفرات كما انه كان عرضـة للاغتصاب مرات عديدة، انظر الحياة عدد 66 ـ 1935.

24) انظر مـحـضـر الاجتـمـاع رقم 78 بتاريخ 20 ماي 1935 ـ انظر وثائق الحـركـة الوطنيـة مصدر سابق.

25) المحاضر المقصودة تحمل رقم 74 ورقم 80 ـ مصدر سابق.